

منزلة الجاسوس على القاموس للشدياق
(1804 - 1888 م) من اضاءة الراموس
لابي الطيب الفاسي (1699 - 1761 م)

بقلم : محمد رشاد الحمزاوي

1 - يحسن بنا أن نذكر بأن اضاءة الراموس واطافة الناموس على اضاءة القاموس (1) الذي وضعه عبد الله محمد بن الطيب الفاسي الشركي (2) الصميلي قد صدر منه بتاريخ 1983 - 1985 م ثلاثة أجزاء بالملكة المغربية . أما الجاسوس على القاموس الذي وضعه أحمد فارس الشدياق فقد صدر بالقسطنطينية سنة 1299 هـ . وقد دونه صاحبه وأهداه للملك محمد صديق حسن بهادر ملك بهوبال . والمؤلفان مخصصان ، كما يشهد بذلك عنوانهما ، للاستدراك على معجم القاموس لابي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز ابادي (1329 - 1441 م)

(1) اضاءة الراموس واطافة الناموس على اضاءة القاموس لابي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي الشركي الصميلي . تحقيق عبد السلام الفاسي والتهامي الهاشمي مطبعة فضالة بالمحمدية - المملكة المغربية - ثلاثة أجزاء والباقي في الانتظار .

(2) يثبت المحققان « الشرقي » في مقدمتهما . وهو حسب رأينا نسبة الى الشراوة وهي جماعة من المرابطين الشاذلية ، لهم زاوية مشهورة توجد بتادلا بالملكة المغربية .

وللدفاع عن معجم الصحاح لابي نصر اسماعيل الجوهري
(ت . 1005 م) اعتقادا منها أن صاحب القاموس قد أجحف بحق
الجوهري فضلا عن أخطائه وهناته التي اجتهدا في مؤاخذته عليها .

1 - 2

ومرادنا من وضع هذه القضية هو أن ننظر اليها من ناحيتين يستوجبهما
اطاران أحدهما واسع وثانيهما محدود بالضرورة ، لهما صلة وثيقة بالموضوع
المطروح. فالحديث عن الجاسوس على القاموس (3) يهدف ضمن الاطار الواسع
الى تقييم إسهامه اللغوي في تطوير المعجم العربي بالاستدراك والنقد والتجديد
لا سيما وأن الجاسوس على القاموس قد اعتبر في نظر المحدثين مبادرة جديدة
للاسباب التالية :

1 - 3

(أ) استدراكه على القاموس وتنزيله منزلته من المعجمية العربية اذ قال
فيه الشدياق : فاني لما رايت في تعاريف القاموس للامام القاضي محي
الدين الفيروزابادي قصورا وابهاما وترتيب الافعال ومشتقاتها فيه محوج
الى تعب المراجعة ونصب في المطالعة ، والناس راوون منه وراضون
عنه ، أحببت أن أبين في هذا الكتاب من الاسباب ما يحض أهل
العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب ،
واضح التعريف ، شاملا للالفاظ التي استعملها الادباء والكتاب وكل
من اشتهر بالتأليف » (4) .

(3) أحمد فارس الشدياق - الجاسوس على القاموس - طبع في مطبعة الجواث سنة 1299 هـ والجواث
جريدة كونها الشدياق بعاصمة الخلافة العثمانية وكان لها شأن لاسيما في احياء التراث والثقافة العربية
الاسلامية .

(4) الجاسوس على القاموس ص 3 وص 6 .

(ب) دعمه لمكانة صحاح الجوهرى التي انتقدها القاموس ،
معتبراً الصحاح مثالا للمعجم العربى ، مهملاً بهذه المقارنة خصائص
القاموس الاساسية ومميزاته التجديدية لا سيما في علوم الطب والنبات
والحيوان .

(ج) اعتبار الجاسوس على القاموس مقاربة نظرية وتطبيقية نقدية تعبر
عن أزمة المعجم العربى ، ودعوة من دعوات عصر النهضة الى المبادرة
باصلاحه وتجديده اذ يقول الشدياق « فان المؤلفين الاولين رحمهم الله
ألفوا وبرعوا وأجادوا ، وصنفوا ، ونفعوا وأفادوا ، غير أنهم ألفوا
كتبهم على حسب أفهامهم وأذهانهم وأفهام أهل زمانهم ، فاختصروا
وأوجزوا وأشاروا ورمزوا . وأعظم شاهد على ذلك أنهم لم يضبطوا
كلامهم على مثال فكأن التصحيف لم يكن يخطر لهم ببال . . . ومن
هنا كثر الخلاف في الروايات ، واتسع المجال في التأويل ما بين نفي
واثبات واحتمال واثبات » (5) .

والملاحظ هنا أن الشدياق قد وضع معجماً أسماه « سر الليل » واعتبره
نموذجاً للمعجم العربى الحديث . فلم تكن له حظوة تذكر بين المعاجم
المشهورة فضلاً عما لحقه من نقد وتجريح (6) .

1 - 4 ويؤيد ذلك كله الاعتقاد السائد بأن الجاسوس على القاموس بتمامه
وكماله من وضع الشدياق حتى أن محققى اضاءة الراموس لم ينتبها الى
أن الصلة وثيقة بين الجاسوس والراموس . ففاتهما هذا المرجع
الثانوي الهام . واقتصر على مخطوطات الخزانة الملكية المغربية دون

(5) الراموس (ج/1 ص (. ز) .

(6) انظر عبد الله درويش : المعاجم العربية مع اعتناء خاص بالخليل بن أحمد ، القاهرة ،
ص 117 - 118 .

أن يذكروا ولو بالإشارة الجاسوس على القاموس عند الحديث عن مؤلفات أبي الطيب الفاسي (7) وعن الذين اقتدوا بشرحه للقاموس لا سيما الزبيدي صاحب « تاج العروس » وأبي العباس السجلماسي المدغري صاحب « فتح القدوس في شرح خطبة القاموس » (8) . ولنا عودة الى ذلك التحقيق الخاص بالراموس للنظر في محتواه جوهرًا وتفصيلاً ، منهجاً ومتناً .

1 - 5 أما الشدياق فانه كان وفيًا للامانة العلمية لانه ذكر الصلة القائمة بين جاسوسه وراموس أبي الطيب وغيره ممن أخذ عنهم فقال : « ومن جملة أولئك الائمة الاعلام الذين أشرت الى انهم انتقدوا القاموس عبد الرؤوف المناوي ، وشهاب الدين الخفاجي والملا علي بن سلطان الملقب بالقاريء ، والسيد علي خان صاحب طراز اللغة . وسأورد من كلامه نبذة في النقد الاخير . وبهاء الدين العاملي صاحب الكشكول ، وأبو زيد عبد الرحمان مؤلف الوشاح ، وبدر الدين القرافي ، ومحمد بن الطيب الفاسي ، الف حاشية على القاموس في مجلدين موضوعهما الانتصار للجوهري . ولذا لم يتعقبه في كل مادة فان المحشين لا يتبعون كلام المصنفين جملة جملة خلافاً للشرح . وهذا هو الفرق بين الفريقين » (9) .

2 - 1 نستخلص من هذا أن الشدياق اعتمد مخطوطة من مخطوطات اضاءة الراموس ولم يذكر مكانها وخصائصها مثلما لم يذكرها بتاتا المحققان بالملكة المغربية . ولعله عثر عليها أثناء اقامته بتونس أو وجدها

(7) الراموس ج 1/1 ، ج ، د .

(8) نفس المصدر ج 1 / د .

(9) الجاسوس على القاموس ص 65 .

بمكتبات تركيا التي تزخر بنفائس المخطوطات العربية والاسلامية لاسيما وأن الشدياق قد أسهم في اصدار « الرائد الرسمي التونسي » قبل ان يستقر بتركيا حيث انشأ صحيفة الجوائب المشهورة ودبر شؤونها . ويفهم من كلام الشدياق أيضا أمران على الأقل : أولهما أنه أخذ عن الكثيرين ومنهم أبو الطيب الفاسي . وقد فات هذا الامر ايضا المحققين لانه يفيدنا كثيرا عن مكانة ابي الطيب الفاسي من نقاد القاموس المختلفين من السابقين واللاحقين . أما الامر الثاني فهو ينحصر في أن الشدياق يوهمنا أن أبا الطيب لم يأت على مادة القاموس كلها فاكتمى بالاشارة اليه ناقدا من نقاد القاموس ، لا أكثر ولا أقل من دون أن يذكر اسم مؤلفه الهام في تاريخ المعجمية العربية ولا اعتماده عليه بكثرة في الجاسوس .

2 - 2 ولقد أفادتنا ذاكرتنا ونحن نطالع تحقيق اضاءة الراموس لابي الطيب الفاسي أن شيئا من محتوياته قد مر بنا ونحن نطالع الجاسوس على القاموس ونبحث عن مكانته من تاريخ نقد المعاجم العربية والاستدراك عليها . فرجعنا الى الجاسوس واطاعة الراموس فبين لنا ما سقناه سابقا واقنعنا ، بالاعتماد على النصوص والمقارنة ، بأن الجاسوس يمت إلى اضاءة الراموس باكثر من سبب لاسيما وأن أبا الطيب الفاسي سلف ، وأحمد الشدياق خلف . وهنا نرجع الى الاطار المحدود الذي تحدثنا عنه سابقا لنؤكد أننا سنركز في بحثنا هذا على الصلة المتينة القائمة بين اضاءة الراموس ومقدمة (10) الجاسوس والنقد الاول : في الكلام على خطبة المصنف (11) .

(10) نفس المصدر - المقدمة ص 6 - 90 .

(11) نفس المصدر : النقد الاول : في الكلام على خطبة المصنف ص 90 - 130 .

وتلك ضرورة حتمية تفرضها علينا نصوص المقارنة لان اضاءة الراموس لم يصدر منه كما قلنا سابقا الا ثلاثة أجزاء لا تسمح لنا بأن نتبع بالمقارنة الكاملة ما جاء في النصين . وذلك آت ان شاء الله بعد تحقيق اضاءة الراموس تحقيقا كاملا .

2 - 3 ان مقارنة الجاسوس واطاءة الراموس في ما يقرب من 130 صفحة من صفحات الجاسوس تبين لنا أن فارس الشدياق قد اعتمد أبا الطيب الفاسي ، الذي يسميه المحشي ، اعتمادا يكاد يكون كليا في مستوى المنهج ومستوى النص . ولذلك حق لنا أن نجزم بأن اضاءة الراموس ، تعتبر في مقدمة الجاسوس ونقده الاول ، المرجع الاساسي والعظم الفقري لمادته التي يسردها الشدياق حرفيا معتمدا اياها حجة رئيسية ووقاية مدعمة لنقد القاموس .

2 - 4 فلقد لاحظنا في مستوى المنهج أن الجاسوس قلد منهج اضاءة الراموس واتبع تقريبا تخطيطه العام من ذلك انه اقتصر مثله على الجوهري فحسب . . . ونحا نحوه في مقدمته (12) وفي الكلام على خطبة القاموس ، وأعاد تقريبا أهم عناصر نقد أبي الطيب الفاسي وأمهات مأخذه بما في ذلك تراجم الجوهري (13) أو صاحب القاموس والمبرد الخ . . . فضلا عن النصوص المأخوذة من اضاءة الراموس . ولا يحق لنا ان نواصل المقارنة في مستوى التصنيف والتبويب مادام جزء هام من اضاءة الراموس لم يصدر بالملكة المغربية - على أنه يجب أن نلاحظ على سبيل الذكر لا الحصر ان الشدياق قد تصرف أحيانا في مادة اضاءة الراموس . فقدم وأخر في

(12) الجاسوس على القاموس مثلا من ص 107 .

(13) الجاسوس على القاموس ص 76 واطاءة الراموس 2 / 10 .

بعض الحالات ، من ذلك أنه أدرج في مقدمة الجاسوس شيئا من حاشية أبي الطيب على خطبة صاحب القاموس المدعو بالمصنف كما أدرج أيضا نقد مادة بدأ (14) الواردة في مقدمة الجاسوس والمذكورة في الجزء الثالث من الراموس . وكذلك الشأن بالنسبة لمُدخلي برأ وخلا الخ . . .

2 - 5 أما في مستوى النصوص فإننا نعتقد ان ما أخذ منها من اضاءة الراموس وارد بكثرة في نص الجاسوس الذي يذكر آراء أبي الطيب الفاسي ويرددها غالب الاحيان بتعليق قصير من الشدياق كثيرا ما يبتدىء بـ : « قلت » . ومما يؤكد استبداد نص أبي الطيب بالجاسوس ، سكوت الشدياق في نطاق المقدمة والنقد الاول ، عن اسهامات الأئمة الذين أشار اليهم والذي أدرج اسم أبي الطيب في آخر قائمتهم ، انطلاقا من ذات نص أبي الطيب الفاسي . فأخذ عنه مثلا ما قيل في شأن ابن سيده او ياقوت الخ . . . والملاحظ أن الشدياق قد تصرف في نصوص ابن الطيب بالحذف والايجاز والتلخيص .

3 - 1 توجد نصوص الجاسوس موزعة تقديماً وتأخيراً في اضاءة الراموس بأجزائه الثلاثة (15) .

وهذه النصوص على غاية من الاهمية لانها تفيدنا بوجود مخطوطة « شدياقية » يبدو لنا أنها تختلف عن مخطوطات الخزنة الملكية بالمغرب

(14) الجاسوس على القاموس - المقدمة ص 67 واطاعة الراموس 3 / 54 .

(15) أ (الجاسوس ص 90 - 91 - واطاعة الراموس 82/1 ، 86 ، 88 .

ب) الجاسوس ص 106 ، 108 - واطاعة الراموس 24/2 ، 29 - 31 .

ج) الجاسوس ص 67 - واطاعة الراموس 3 / 54 ، 63 ، 140 - 141 .

ولأنها وفرت قراءات يظهر لنا أنها تستحق أن يأخذ بها محققا اضاءة
الراموس لأنها تبدو أوفق وأسلم . ولنا في ذلك أيضا عودة .

3 - 2 ونختتم هذه المحاولة بعينة من الجاسوس وأخرى من إضاءة الراموس
تتعلق بمادتي : بدأ وبرأ حتى ندرك الصلة المتينة بين النصين :

الجاسوس على القاموس ص 67 اضاءة الراموس 3 / 54
وقال أيضا في مادة بدأ : ومن . . . ومن طالع شروح
طالع شرح التسهيل والكافية التسهيل والكافية على ما في
على ما في كلام المصنف من كلام المصنف من التخليط
التخليط والخبط في جمع (X) والخبط وجمع (X) المضافات
المضافات مع المركبات من غير مع المركبات من غير تمييز ولا فرق .
تمييز ولا فرق . فليكن الناظر بصيرا في
فليكن الناظر بصيرا في رتق ذلك رتق تلك الفتن (X)
الفتن (16) .

3 - 3 الجاسوس ص 67 اضاءة الراموس 3 / 60
وقال في برأ : وصرح أرباب الحواشي
الحواشي بأنه اشارة الى أن بأنه اشارة الى أن الباري أخص
الباري أخص من الخالق كما في من الخالق كما في قوله : هو
قوله هو الله الخالق الباري الله الخالق الباري المصور الخ
المصور الخ وهذا كلام نفيس هو ثمرة ما
ثمره ما قالوه وقد أغفله المصنف قالوه وقد أغفله المصنف رحمه
رحمه الله على عادته في ترك الله على عادته في ترك

(X) العبارات المسطرة والمنجمة تدل على قراءتين مختلفتين لنص اضاءة الراموس .

(16) الجاسوس على القاموس ص 6 .

الضروريات (x) والاعتناء بغير الغريبات (x) والاعتناء
الضروريات (x) ، والتغافل بالضروريات (x) ، والتغافل
عن تحقيق أسماء باري البريات عن تحقيق أسماء باري البريات
سبحانه لا رب غيره . سبحانه لا رب غيره .
والمستخلص من هاتين المادتين أن الجاسوس قد أخذ نص إضاءة
الراموس الذي يستوجب من محققه التمعن في قراءة الشدياق له لأنها
أقرب الى الصواب في مناسبات عدة .

3 - 4 فهل يعني هذا أن الشدياق قد غبن حق أبي الطيب ؟ ذلك ما لا يمكن
الجزم بشأنه الا عندما تتوفر لنا جميع أسباب المقارنة بالاستقراء
والتقصي . المهم أن الشدياق اعترف أنه أخذ عن أبي الطيب الا أنه لم
يؤكد على منزلته من جاسوسه وان كان قد دعانا الى الاستدراك على
مؤلفه مؤكدا على ذلك بقوله : « فهذه غاييتي من تأليف هذا الكتاب
لا التبجح بأني أتيت بشيء عجاب . فان مثال التبجح كان لي
نذيرا . . . فمن رأى في عملي هذا شيئا يشين ، فليستره بأني
أخلصت القصد وأفرغت الجهد في اظهار الحق
للمتبصرين » (16) .

ولقد سعينا الى أن نستر عمله بالتعريف برسالته الضخمة وأمانته
العلمية الصادقة وربط صلته بأبي الطيب الفاسي رغبة في التأكيد على
اسهامات المغرب والمشرق العربيين الاسلاميين في سبيل احياء تراثنا
العربي الاسلامي بالاستدراك والنقد والتجديد .

محمد رشاد الحمزاوي

(x) العبارات المسطرة والنجمة تدل على قراءتين مختلفتين لنص اضاءة الراموس .

(16) الجاسوس على القاموس ص 6 .